مذكرات فتاة رصينة

تجربة جيل يبحث عن نفسه

بقلم : فريدة النقاش

تعرض سيمون ده بوفوار في هذا الكتاب (*) تجربتها كفتاة فرنسية بورجوازية تعيش فترة من اخصب الفترات التي مرت بتاريخ العالم وتاريخ الفكر الانساني على حد سواء ، هذه الفترة هي ما بين الحربين العالميتين الاولى والثانية ، وقد انعكست آثارها بشكل واضح على المجتمع الفرنسي والاوربي عامة وغيرت كثيرا من ملامحه وقيمه .

والحق ان هذه التجربة ليست تجربة سيمون وحدها ، انما هي تجربة جيل باكمله عاش هذه الفترة بكل ما فيه وبحث عن خلاصه في الدين والادب والفن والحب والفلسفة .

وبدأت اولى تجارب « سيمون » مع الدين كنتاج طبيعي لارتباطها بمجتمعها وطبقتها ، وكان الله يبرر لها الوجود ويجسد الخير والحق وكانت تجد في السماء ما تفتقده في الارض ، فلم يكن غريبا ان تجد في الدين حلا لكل مشاكلها ، وفي سني مراهقتها الاولى كان الدين يمنحها راحة صوفية عميقة وشعورا بان الله لا يسقطها لانه بدونها ستفقد مخلوقاته مغزاها : البراري ، الجداول والورود والكائنات تصبح كلها بلا شاهد « وحين كنت في الصباح اجتاز الحواجز عدوا لاوغل في الغابات فانما كان هو الذي يناديني وكان ينظر الي بغبطة وانا انظر الى هذا العالم الذي خلقه لاراه » وفي اللحظة التي بدأ فيها احتجاجها على مواضعات طبقتها بدأ عالمها الروحي ينفصل انفصالا حاسما عن عالمها الفكري اذ لم تجد من المنطقي ان يكون ابوها مخطئا في فقده لايمانه ، وهو الجنس الاذكى والاكثر تفوقا ، في حين تكون امها ، وهي الجنس الادنى، مصيبة في ايمانها ، فخرجت من ذلك كله بان الحقيقة لا تتفق والخير ولم يعد للدين حججه المنطقية لانه لا يقنع الا المقتنعين . وانعكس احساسها بالانفصال على موقفها من التناول والاعتراف فقد كان الاب يجسد الاله ويعكسه بكل ما فيه من بعد عن الاشياء الصغيرة والقضايا اليومية التي تهم البشر فقط والتي ليس جديرا باله ان يفكر بها . فحين عنفها الاب لانها اصبحت شديدة العناد والشغب ، احمرت وجنتاها واحتقرته وكأنما سقط الله من نفسها ، وكانت بعد طفلة على اعتاب المراهقة ، ولما قص عليها الاب بعد ذلك قصة فتاة في مثل سنها فقدت ايمانها بعد ان قرأت « كتبا سيئة » ادت بها الى الانتحار كانت تشعر ببعد الله عن العالم وسلبيته « لماذا لم ينقذها الله وكيف تستطيع كلمات يقدمها البشر ان تهدم يقينا كبيرا » واخذ احساسها بافلاس الدين منطقيا يعذبها فكانت تفسر مأساة الفتاة الصغيرة التي اخفق الله في انقاذها على انها تكمن في اكتشافها قبل الاوان وجه الواقع الحقيقي، ووعدت نفسها ان ترى ذلك الوجه يوما ما ، وقد جاء بالفعل ذلك اليوم وفقدت الله كليا وقد اصبحت بعده وحيدة بلا شاهد ، فاصبحت السماء فارغة بعد ان كانت زاخرة بالرموز والوعود ، وفقد الخلود سحره ، وتغير وجه العالم تغيرا كليا مؤلما ، وشعرت ان وجودها اصبح ملطخا لان هذا البعد بينها وبين الله يفقدها الناس والاشياء الحميمة القريبة الى نفسها ، فلم يكن من السهل ان تتخلص نهائيا من رواسب الكاثوليكية في أعماق شخصيتها ويصعب عليها كثيرا ان تفقد هذا الذي ملأ حياتها ووعدها بالبهجة والخلود ، فكانت تمنحه فرصا اخرى ليكشف عن نفسه ويملأ قلبها باليقين « وذات ليلة تحديت الله اذا كان موجودا ان يعلن عن نفسه فظل صامتا لا يجيب فلم أعد اوجه اليه اي كلمة » واصبح الله من يومها غريبا عليها وعلى العالم الذي يضطرب فيه البشر . وكانت طبيعة الجيل الا يقبل الحلول الوسط ، فاما كل شيء وما لا شيء على الاطلاق ، فاما ان يملأها الله باكمله او ان يكف عن ان يوجد نهائيا. فكانت تتمنى ان يتجلى لها الرب وان تأخذها نشوة غامرة كلية او ان يحدث شيء ما خارق يسكت كل الشكوك سواء داخلها او خارجها عنها ، ولكن ويا الخسارة لم يحدث شيء فليئته الله ولتتسع الهوة ما بينهما ولتبحث عن ملجأ اخر .

والى جانب هذا النموذج كانت هناك انماط اخرى تعاني نفس الازمة الدينية ، فحين استقر ابوها نهائيا على رفض الدين كانت «زازا» تجتاز في المقابل ازمات حادة بالنسبة لمسيحيتها ولكنها في النهاية تستقر على الايمان الشديد بالله والخلود ، وتبعا لفكرتها المسيحية كانت ثورتها على مجتمعها وطبقتها لا تتجاوزحدود الاحتجاج النفسي ، فحين كانت تعترض على افكار امها لم تكن تستطيع ان تخرج عن طاعتها ولا تفكر بالثورة عليها ، وكان الصراع بين ايمانها ومسيحيتها وبين رغبتها العارمة في ان تعيش حياتها يسبب لها ازمات نفسية عنيفة « ففي اللحظة التي كنت اوجد فيها بكل كثافة كنت لا انقطع عن الاحساس بطعم العدم في فمي »

وكان خروجها على الدين بداية لتمردها على مجتمعها فتاقت الى ان تخرج من المجتمع البورجوازي وان تعلنها ثورة فاصلة شاملة على عفونة هذا المجتمع وتصلبه وخاصة بعد ان اكتشفت افلاس احد الاسس الرئيسية لهذا المجتمع وهو الدين ، وكان عليها في البدء ان تجد ما يملأ الفراغ الذي تركه الدين في نفسها ، وكانت في هذه الاثناء تعيش تجربة حب من جانبها فقط تغذيها بخيالها وتعمقها لانها تخشى ان تفقد كل شيء فعاشت على امل زائف ، ومن خلال تجربتها مع « جاك » تعرفت على الادب ، واخذت القراءة تستغرق ما استغرقته الصلاة في الماضي ، فملأ الادب الفراغ الكبير الذي تركه الدين في نفسها ووجدت فيه كل ما فقدته في الدين : الخلود الضائع والاستغراق الصوفي . ولكن كان هناك شيء جديد لم تعرفه من قبل في تجربتها مع المسيحية ، ذلك انها

(*) منشورات دار العلم للملايين ـ بيروت

بدأت تلتصق بالارض واصبحت تتقدم في وضح النهار نحو الحقيقة الساطعة للعالم ، وحين اعترفت لامها بانها فقدت ايمانها وبدأت تشق طريقها الجديد بثقة وتخلصت من العبء الذي طالما عذبها وفصلها عن الاخرين، كانتمنتشية لانها ستعيش بوجهمكشوف وكانت تملكمن الشجاعة ما يعينها على ان ترى العالم ايضا مكشوفا وان ترى الواقع دون تشويه او زينة .

ولما التقت بادب الجيل الجديد كانت تجد فيه نفسها ولم يكن هذا غريبا عليها « لانها من لشاطيء نفسه » كانت تقرأ كلوديل وجيد وفاليري ومورياك ومن خلالهم تشربت فكرة العبث واللاجدوى لان مأساة هذا الجيل كانت تكمن في أن يرى كل شيء في وضوح الشمس ، ولكنهم لم يجدوا حلا لشيء فأعلنوا الافلاس وتردوا في العبث فقد كان معظمهم من ابناء الطبقة البورجوازية انهكتهم الحرب فانكمشوا داخل انفسهم ولكنهم كانوا تعبيرا امينا عن طبقتهم وعن جيلهم الذي كان يمجد القلق وكان جاك بطل شبابها وحبها تجسيدا مرهفا لهذا الجيل القلق الحائر، لم يكن يرهق نفسه في البحث عن حل ، وانما كان يتوغل بسيارته عبر باريس في الليل ويقضي لياليه في مشارب مونبارناس ، ومع ذلك كان يؤمن في اعماقه انه ليس من الهين ان يعيش الانسان دون ان يكون مؤمنا بشيء ما ، ولكن باي شيء ، يؤمن الانسان ؟ واية غاية تستحق ان يبذل من اجلها الجهدوالعرق ؟ « ليس ثمة غاية تستحق اي جهد » !

وفي مقابل هذا لنموذج القلق الذي لا يجد غاية تستحق اي جهد كان هناك غاريك الذي وجد نفسه في العمل من اجل الاخرين ، فأسس نظام الفرق الاجتماعية للارتفاع بمستوى الطبقات الادنى ووجد في هذا العمل الغاية الكبرى التي تستحق كل الجهد ، وملأت هذه الفكرة الكثيرين من الشبان الذين كانوا يجدون فيها اما غاية لهم او ملجأ بعد ان مزقهم القلق واضناهم البحث عن الامان ، وكانت هذه الفرق بمثاليتها وفكرتها التقدمية عن الانسان تؤكد لدى سيمون فكرتها عن الطبقات وعن قيمة الانسان ، فالمادة لا تستطيع ان تميز انسانا على اخر لاننا جميعا سواء امام القيمة الانسانية ، وكل ما يأتي بعد ذلك فهو خارج عن نطاق الانسان كذات يحب ويتوق ويأمل ، ولذا كانت تجد في وجه غاريك ملامح البطل ، الانسان الاعلى لانه بدل ان يترك حياته للقدر اختارها وخلق منها مغزى وفكرة ، فاي عذوبة يستشعرها الانسان حين يبذل جهده في سبيل هدف كبير ، وحين يمنحه هذا الهدف قدرة خارقة على العطاء ، واصبح غاريك يضيء ايامها لان العمل من اجل الاخرين مبهج وحبيب الى القلب ولاسيما اذا كان ناتجا عن ايمان عميق بالانسان.

كان جاك وغاريك اذن هما طرفي القضية ، هما السلب والايجاب : جاك يمجد العبث ويعيشه ، وغاريك يخلق مغزى لكل شيء ويتسامى الى الانسان البطل ، اما سيمون فكانت تجسد الجيل باكمله الذي لم يعرف الاستقرار بعد وكلا الطرفين يشده الى جانبه .

وحين تكشفت لها كثير من الحقائق كانت المرحلة التالية في حياتها هي دراسة الفلسفة ، لان الفلسفة تمضي الى الجوهر مباشرة ولا تهتم بالقشور وتنفذ الى الكل دون ان تهتم بالتفصيليات ، وبعد قراءات عديدة عن نيتشه وسبينوزا وكانت وبرجسون ، توصلت الى ان الادب والعلم والفن اقرباء فقراء الى الفلسفة لانها اكثرها شمولا وقدرة على كشف حقائق العالم . ونظرا لانها لم تكن تريد ان تكون فكرا محضا ، فلم تفتح لها الفلسفة السماء ، ولم ترسها نهائيا على الارض فاخذت تهرب الى حانات باريس وتشرب الخمر حتى تفقد وعيها وتمارس الحرية الى منتهاها ، ولكنها في نفس الوقت كانت تجرجر خلفها رواسب كاثوليكة عديدة : فرغم انها قد افلتت من الدين تماما فالمحرمات الجنسية ما زلت تحيا في نفسها الى حد انه كان باستطاعتها ان تتذوق المورفين والخمر ولكنها لا تفكر ابدا بتجربة الجنس وذلك تبعا للفكرة المسيحية عن الجسد .

ورغم كل هذه التجارب التي باعدت بينها وبين الدين وبينها وبين متواضعات طبقتها ، الا انها ظلت تحمل جزءا كبيراً من ماضيها . كانت تود لوتحمله معها الى المستقبل لانه جزء من تاريخها عرفت فيه الحب والقلق والدموع ، وظلت تعمق تجربة حب تعرف انها فاشلة ، فلم يكن الحاضر من الغنى والوضوح بحيث يغنيها عن الماضي. اما المستقبل فقد كانت واثقة منه ، ولكنه بعد ما زال في عالم الغيب، وعلى هذا تمسكت بماضيها وبكته كثيرا .

وفي كل شخصية من شخصيات هذا الكتاب يتمثل لنا بوضوح نموذج من اكثر النماذجغنى وخصوبة ، تمثل لنا الحلول والنتائج التي وصل اليها هذا الجيل القلق في سبيل البحث عن نفسه وعن الحقيقة ، فوراءه ماض يثقله وحاضره ما زالت تثقله آثار الحرب الاولى والخراب الذي خلفته في وجدانه وفكره ، والمستقبل شديد الضبابية ، فعليه ان يعيش بملئه ويرى الواقع عاريا مهما كانت قسوته وبشاعته .

وبينما كانت سيمون تعيش مأساة هذا الجيل باخلاص كان للقضية طرف اخر بالنسبة لها كفتاة ، فقد كانت الفكرة السائدة ان المرأة كائن ادنى من الرجل ، ولم تكن مجرد فكرة انما كانت يقينا عند الرجال والنساء على حد سواء . وفي حين كان الشبان المهتمون بالادب والفكر

دراسات قومية

من منشورات دار الاداب

* ★ *

معركة المصير الواحد	ميشال عفلق
دروب القومية العربية	عبدالله عبد الدائم
القومية والانسانية	عبدالله عبد الدائم

دار الاداب

يقرأون الكتب الحقيقية ويعيشون تحت سماء مفتوحة تضيئها شموس كثيرة كانت سيمون قد حشرت في غرفة ضيقة لانها فتاة ، كائن ادنى « وحين كان يتفق لي ان امر امام كلية ستانسيلاس كان قلبي ينقبض اذ اذكر السر الخفي الذي يحتفلون به خلف تلك الجدران « قاعة درس للصبيان » كنت اشعر انني منفية »

وكان الجميع يؤكدون لها وهي في سبيل الاستعداد لامتحان الاجريفاسيون ان على الفتاة .لا تفكر بالنجاح الا بعد ان ترسب خمس مرات على الاقل ، وكانت ثورتها النفسية على هذا الوضع مريرة عارمة ، ومن خلال هذه الثورة تاكدت لها قيم كان مجتمعها ينكرها ويسخر بها ، فبينما كان المجتمع يطلب من الفتاة الطهارة الكاملة كان يبيح للشاب كل المتع والفرص ، ويصبح شاذا ذلك الشاب الذي يظل على بكارته بعد الثامنة عشرة . ولكن سيمون لم تكن تغذي احساسها بالنفي وانما كانت تقاومه بان تبذل لنفسها الوعود ، فبعد سنتين او ثلاث سنين من الدراسة ستكون حرة ـ سوف تفعل ما يحلو لها وتعيش كما تريد لا كما يريد الاخرون وستتفتح نفسها وتفتني حتى تصل الى اعمق اعماق الاشياء ومن خلال الفن والفكر سوف تحتل مكانها من هذا العالم ، ولكي تحتل هذا المكان عليها ان ترفض الروتين ، وكانت مرحلة حادة في حياتها ، الصراع بين ان تكون هي نفسها او ان تكون شيئا عاديا « اهذه هي الحياة ؟ » الغداء كل يوم والعشاء كل يوم وغسل الصحون والمرض والشيخوخة والاطفال ، كل هذه الاشياء العادية التي تقتل في الانسان حس الحرية والتجديد وتميت فيه بذور الخلق والتوق الى آفاق اخرى، كانت تردد كثيرا كلمات جيد « المهم ان يجعل المرء من نفسه شخصا غير قابل للاستبدال » لانها اذا عاشت حياة الكثيرين العادية وكانت شخصا قابلا لان يستبدل ، فسوف تفقد نفسها ولن تفتني ابدا ويتلاشى احساسها الخاص بصميمية الاشياء وعمق ارتباطها بالفن والفكر .

وفي الفترة التي فقدت فيها سيمون الايمان بكل شيء ورفضت ان تعيش حياة الكثيرين العادية اخذت تهتم اهتماما كليا بحياتها الداخلية « فتعلمت الشكوك والتردد وتمتمة الامل الخفية وكنت المنظر والمنظور ولم اكن موجودة الا بي ومن اجلي » وكانت هذه العزلة تلهمها بصيرة ترى بها الاشياء اكثر وضوحا ، وبعد انكماشها المؤقت على ذاتها وصلت الى مرفئها واتضح المستقبل امامها وحددت مكانها بين الادباء والمفكرين الذين يمنحون للعالم من نفوسهم ويلتقون عبر الزمن ليشاركوا في الجهد الذي يبذله الانسان ليعرف الحقيقة ويضيء بها الارض ، وكان حلمها ان تقف راسخة الاقدام على ارض صلبة شديدة الثقة بالمستقبل وبالقدرة على بذل الجهد في سبيل بلوغه ، ويكون هذا المستقبل خاصا بها وحدها لانها ليست كالاخرين ولم تكن كل شخصيات الكتاب متشابهة ، كان لكل طريقة، ولكنهم كانوا يلتقون جميعا في قلقهم وبحثهم عن الحق ، كان الجيل باكمله يبحث عن مرفأ تستقر عليه نفسه العظيمة التواقة الى المنح والبذل المستمر لكي تضيء للاخرين طريقهم ، وكان هذا الجيل يحمل ملامح البطل حتى حين كان يمجد العبث ، لانه عاش صباه على خرائب الحرب الاولى ، وينظر الى المستقبل فيجد غيوم حرب مقبلة ، ولكنه في ضياعه وعبثه ولامبالاته كان يكره الزيف .

القاهرة — فريدة النقاش

الى واحة

ردي نظرتك الجوعانه
وخذي البسمة من شفتيك
علك تحتاجين اليها لو اقبل اخر
فانا رغم الطول الفاره
رغم شبابي
لاامل في الدنيا شيئا غير عذابي
وامانينا

*

لاتقتربي . لاتقتربي
يا اختي لا تلقي الشبكه
فشباكك سوف تعود اليك بلا سمكه
والبحر ملىء بالاسماك

*

امضي عني .امضي عني
اخشى يا أختي من حزني
ان يطفر دمعا من عيني
امضي عني

*

فشبابك مازال بخير
لم يذبل بعد
وشفاهك شهد
وخدودك ورد
وعيونك بحران عميقان لاحا من بعد
لكن ردي . ردي نظرتك الجوعانه ..!

القاهرة — محمد صالح حسن